مدينة تتنكر لتراثها

بغداد القديمة.. شناشيلها أصبحت أنقاضاً وأزقتها مزابل

عائلة هجرت الطابق العلوي

لطالما اقترن ذكرها بقصص ألف ليلة وليلة، وتاريخ حافل بسحر الشرق يجتذب السياح من مختلف دول العالم للتجول فيها، إنها بغداد، عاصمة الإمبراطورية العباسية، مدينة الشعراء والطرب، في ذلك العصر، ومدينة ليالي أبي نؤاس والشناشيل حتى وقت قريب.

□ بغداد / أحمد حسين
□ تصوير / محمود رؤوف

إلا أن الصورة لم تعد كذلك، وقد زار بغداد الحالمون بمشاهدة معالم تعود بهم إلى عصر ما زال يشغل عقول الكثير ويداعب مشاعرهم، وهم متشوقون لرؤية أزقة بغداد القديمة، ستخيب آمالهم لما آلت إليه هذه المدينة.

"أمضيت فيه سبعين عاما، وودعت منه أحباء، وأرغب أن تكون آخر أيامي فيه، لكنني أخشى على أبنائي وأحفادي من البقاء فيه". هذا ما قاله المعلم المتقاعد أبو وليد، من أهالي الحيدرخانة، عن منزله الذي يقع في أحد الأزقة الضيقة، بدت شناشيله مائلة بشكل واضح ومخيف، حتى أن المارة يحق لهم تجنبها خوفا من أن تنهار عليهم.

ويضيف في حديثه لـ"المدى" أن عائلته انتقلت من منطقة (تبة الأكراد) إلى هذا المنزل قبل ٧٠ عاما، كان عمره في حينها ستة أعوام، "في هذا المنزل ولد اثنان من أشقائي وشقيقتي الصغرى، ومنه خرجت جنازة أبي وأمي وشقيقي الأكبر، فيه ترعرعت ومن الصعب عليّ مغادرته، لكنني أخشى على أبنائي وأحفادي من انهيار المنزل على من فيه".

ويشير أبو وليد إلى عدد من المنازل المهدمة في الزقاق نفسه قائلا: "من حسن حظ سكانها أنهم غادروها قبل أن تنهار، فقدت اعتدنا نحن سكان هذه المنازل على قراءة علامة الانهيار قبل وقوعه".

ويبيّن "على سبيل المثال، أولى تلك العلامات تبدأ في الطابق العلوي، حيث السقف يتقوس بشكل واحد جدا، ما يعني أن العمر الافتراضي شارف على الانتهاء، عندها نقوم بهجر الطابق وإغلاق غرفه بالأقفال والبعض منا يقوم بلحام الأبواب وباب في أعلى السلم لمنع الأطفال من الصعود، ونكتفي بالطابق الأرضي".

ويتابع أبو وليد "لم يبق في العمر باق ولا أخاف انهيار المنزل عليّ، لكن المشكلة لا تتعلق بيّ وحدي، والمشكلة الأكبر ، ليس لدينا بديل، فأزمة السكن وارتفاع بدلات الإيجار تجعل انتقالنا من هذا المنزل أمرا شبه مستحيل".

ويوضح "عائلتي كبيرة، أنا وزوجتي، وأبنائي الخمسة وزوجاتهم، يضاف لهم أبناء وبنات أبني الأكبر وعددهم خمسة أيضا"، يصمت للحظات ثم يبتسم "الحقيقة نسيت عدد الباقين، لكن مجمل عدد العائلة يزيد على ٢٥ فردا على ما أظن"، مشيرا "نحن الآن ست عوائل، ما يعني أننا بحاجة إلى ستة منازل، لكن أبنائي موظفون بسطاء وأوضاعهم المادية متوسطة برواتب لا تسمح لهم باستقطاع جزء منها مهما كان ضئيلا لدفعه كإيجار، خاصة أن أبناءهم وبناتهم طلبة في المراحل المتوسطة والإعدادية وبعضهم في الكليات".

يبدو حال أبي وليد وعائلته أفضل من غيرهم، فهناك الكثير من العوائل التي اضطرت إلى هجر منازلها في مناطق بغداد القديمة خوفا من انهيارها، كما أن المنازل المهدمة تتحول بطبيعة الحال إلى مكب للنفايات، ما يخلق بيئة خصبة لانتشار الأوبئة والأمراض، فضلا عن الكلاب السائبة والروائح الكريهة التي لا تطاق خاصة في فصل الصيف، وبالإضافة إلى ذلك تأتي شبكات الصرف الصحي بانسداداتها لتضيف عبئا آخر، حيث تنتشر في أزقة بغداد القديمة البالوعات الخارجية الطافحة طوال الوقت لتلقي بما فيها إلى الزقاق.

شناشيل بغداد التي كانت حتى وقت قريب أشبه بلوحة فنية معمارية معظمها اندثرت، وفيما تحافظ الدول على تراثها المعماري والثقافي والحضاري، تبدو بغداد متنكرة لتراثها، وكأنها تنتقم منه بالهدم ومياه الصرف الصحي والأزبال، وفي المقابل تقف الجهات المعنية موقف المتفرج، أو مكتوفة الأيدي بسبب سوء التخطيط الأساسي أو ما أضيف من وحدات سكنية من دون حساب العواقب.

البدء بمراقبة ناقلات النفط العراقية عبر نظام الـ(GPS)

المدى / بغداد

يجري العمل حاليا على تجهيز صهاريج نقل النفط العراقية البالغ عددها ١١٤٤ ناقلة بمنظومات مراقبة متطورة تعمل بنظام "GPS" التي تعتمد على إرسال المعلومات من خلال القمر الصناعي بشكل مباشر.

جاء ذلك بعد اتفاق بين هيئة النقل لشركة توزيع المنتجات النفطية بوزارة النفط ودائرة البحث والتطوير الصناعي بوزارة العلوم والتكنولوجيا.

وقال مدير مركز التصنيع الإلكتروني في دائرة البحث والتطوير الصناعي جمعة عباس لـ"المدى": إن هذا المشروع يهدف إلى السيطرة على حركة ناقلات النفط، مبينا أن "سائق الصهريج قد يخرج أحيانا عن خط السير المقرر، أما في هذا النظام فلن يستطيع ذلك، إذ سيكون خط السير الخاص به مرسوماً على خط خارطة (Google) وفي حال غياب السائق فإن هذه المنظومة تحتوي على جهاز سيخبرنا بذلك".

وتتكون منظومة المراقبة من عدة أجهزة، أبرزها جهاز يقوم بإعطاء إحداثيات الناقلة (موقعها) وخط سيرها على خارطة (Google)، كما تتكون من متحسسات "sensors" توضع في الصهاريج وتقوم بحساب مستوى الوقود في الناقلة قبل الانطلاق وكمية ما أعطته للمحطات والكمية المتبقية، فضلاً عن أجهزة أخرى سترتبط بمحركات الناقلات ووظيفتها معرفة إن كان المحرك يعمل أو متوقفا، وإرسال تلك المعلومات عبر جهاز الإرسال الخاص بالمنظومة والمتصل بالقمر الصناعي.

وأضاف عباس أن "هذه المنظومة من الممكن تطبيقها على أنابيب النفط وليس فقط على الناقلات، إذ أن ذلك سيمكن من معرفة السرقة حال وقوعها".

لكنه أوضح أنهم ملتزمون "بما تطلبه وزارة النفط، إذ يرغبون حالياً بمراقبة الناقلات النفطية فقط".

وبيّن أن حجم الجهاز الذي سيرسل المعلومات عبر القمر الصناعي صغير، "ولن يستطيع السائق أو شركة النقل التعرف عليه أو على مكانه، بل فقط نحن سنكون المسؤولين عنه"، مبررا ذلك بأنه " من المحتمل أن يلحق السائق ضرراً بالجهاز فيعطل بذلك نظام المراقبة".

وقد قام سبعة خبراء بزيارة موقع الناقلات والاطلاع على المواصفات الفنية الخاصة بنظام الـ"GPS" حسب ما جاء في كتاب رسمي اطلعت عليه "المدى".

ولفت عباس إلى أن وظيفة وزارة العلوم والتكنولوجيا استشارية وخدمية للوزارات الأخرى، إلا أنه قال: "هناك وزارات يشتعل رأسك شيباً من الفساد الموجود فيها، حيث هناك سيارات تهم حياة المواطن تم التعاقد عليها ولم يجلبوا معها الأدوات الاحتياطية الخاصة بها، ونحن بجهدنا الخاص قمنا بتصليح بعض السيارات حال عطلها".

طريق "هاملت" أو مثلث برمودا.. تعددت أسماؤه وما زال يعاني الإهمال

□ بغداد / دعاء آزاد

طريق الموت أو (مثلث برمودا) كما يحلو للبعض تسميته، يمر بمناطق شبه صحراوية وغير مؤهلة، اكتسب تسميته هذه بعد العام ٢٠٠٣ لما شهده من عمليات إرهابية راح ضحيتها المئات من المواطنين، فضلا عن كثرة الحوادث المرورية فيه لكونه ذا ممر واحد ذهابا وإيابا.

انه طريق العظيم الذي يربط العاصمة بغداد بمحافظة كركوك ومنها إلى السليمانية واربيل، ولمرور رافد العظيم احد روافد نهر دجلة بالقرب منه اطلق عليه هذا الاسم. معظم الطريق يقع في شمال محافظة ديالى ولكنه يمر ايضا بمحافظتي كركوك وصلاح الدين.

الباحث التاريخي عادل العرداوي بيّن لـ"المدى" أن طريق العظيم أو ما كان يسمى طريق هاملت نسبة إلى المهندس هاملت الذي أشرف على انشائه، هو أحد الطرق التي فتحت عند دخول الانكليز إلى العراق عام ١٩١٥ والتي اراد الانكليز منها ربط العراق بدول العالم.

واوضح إن "البريطانيين عند احتلالهم العراق جلبوا معهم مجموعة من المهندسين، خططوا الطرق، ومدوا شبكات للسكة الحديد، وأنشأوا الموانئ، اضافة الى منشآت أخرى"، مشيرا الى ان "هذا الطريق بدأ العمل به في عشرينيات القرن الماضي وكان ترابيا، ومنذ ذلك الوقت الى هذه اللحظة لا يزال بممر واحد ذهابا وإيابا".

وزارة الإعمار والإسكان شرعت بتطوير هذا الطريق وانشاء الجانب الثاني له، اذ تتعاقد ثلاث شركات على تنفيذ هذا المشروع، وتختص كل شركة بقاطع معين.

مدير مشروع بغداد – كركوك ، محمد عبد الرزاق بيّن لـ"المدى" أن قاطع شركة حمورابي يمتد من منطقة سليمان بيك لغاية داقوق اي بحدود (٢٦ كيلو مترا)، وهو من مسؤولية شركته حمورابي. الشركة الحكومة الوحيدة العاملة في هذا المشروع..

وقال: إن قاطع شركته هو أصعب مراحل إعمار هذا الطريق لأن العمل عبارة عن جسرين وقناة، الاول هو جسر داقوق الذي يعد أطول جسر في العراق، اذ يتكون من ٣٣ فضاء مساحة كل فضاء ٢٤ مترا، وتم نصب ٢٠ فضاء منها، اما جسر الدوز الذي يتألف من ٢٠ فضاء مساحة كل فضاء ٢٤ مترا ايضا، فقد بلغت نسبة الانجاز فيه ٩٠٪.

وأكد عبد الرزاق ان "المشروع سينجز نهاية هذه السنة"، لافتا الى ان المدة المقررة لانجاز المشروع هي لغاية الاول من شهر تشرين الثاني للعام الحالي "لكن لدينا مدة مضافة هي ٥٢ يوما".

"محافظة ديالى أول المتضررين من تأخر انجاز مشروع إعمار وتطوير هذا الطريق لانه حلقة الوصل بين محافظة ديالى والعاصمة بغداد من جانب، ومن جانب آخر يربط المحافظة مع اقليم كردستان" بحسب ما يقول محافظ ديالى هشام الحيالي لـ"المدى".

ويضيف "العظيم هو طريق التجارة العامة لانه الممر الرئيس لنقل البضائع القادمة من الاقليم الى بغداد وان التأخير في الانجاز يؤدي الى اضرار اقتصادية على المحافظة والعاصمة".

ولفت الحيالي الى ان "مشروع انشاء الممر الثاني لهذا الطريق خصصت له ميزانية منذ تسعينيات القرن الماضي، ولكن لم يتم تنفيذه وكذلك قبل العام ٢٠٠٣ اقترح مره اخرى لكن بسبب خلافات على الشركة المنفذة، وبعد هذا العام بدأ العمل بالمشروع".

لكن الحيالي اشار الى ان "مراحل اعمار هذا الطريق الطويلة التي مر بها كانت سببا في الكثير من حوادث السيارات".

سوء التشخيص وفقر الحال يطيح بفرص الشفاء من السرطان

□ الناصرية / حسين العامل

هكذا بدأ المشهد، امرأة في الخمسين من عمرها، تتمدد على فراش المرض، وبالكاد تتلفظ الكلمات، وأفراد من الأسرة والمقربين يتحلقون حولها في لحظة يأس قاتلة.

هنا في محيط هذه الأسرة التي أنهكتها معاناة المرض واليأس والرعب من انتظار الموت يبدو للحزن سطوته الفاجعة على حديث رب الأسرة وهو يروي لـ"المدى" تفاصيل مؤلمة عن حكاية زوجته التي ابتلاها الله بمرض السرطان.

إذ يقول كاظم حسن: إن الأطباء في ناحية الفهود بمحافظة ذي قار، حيث يقيم هو وأسرته، وكذلك أطباء مدينة الناصرية لم يتمكنوا من تشخيص مرض زوجته في بادئ الأمر، ما اضطره إلى السفر لبغداد حيث تم تشخيص المرض بعد فوات الأوان.

ولفت إلى أن الأورام السرطانية أخذت تنتشر في أجزاء متعددة من جسدها بعد أن كانت تقتصر على أورام في العنق والغدد اللمفوية، مشيرا إلى ان زوجته التي باتت لا تستطيع مغادرة الفراش أخذت تواجه مصاعب جمة عند السفر لمراجعة الأطباء في بغداد والمحافظات الأخرى لإجراء الفحوص الطبية وتلقي جلسات العلاج الإشعاعي بصورة دورية وبفترات متقاربة.

وأشار إلى أن ذلك استنزف كامل الموارد المالية للأسرة حتى أنه لجأ في ظل حاجته للمال إلى بيع جزء من أثاث داره لتسديد تكاليف السفر والفحص والعلاج.

من جانبها، قالت زوجته ليلوة عبد السادة (٥٨) عاما، وهي تتحدث لـ"المدى" من على فراش المرض في غرفتها المتواضعة: إن السفر المتواصل للعلاج أخذ يفاقم من معاناتها وصراعها مع المرض، منوهة بأنها باتت تشعر باليأس وعدم جدوى العلاج، وتدعو الله أن يخلصها من محنتها بموت رحيم.

ويصف رئيس المجلس البلدي في ناحية الفهود صفاء الجابري مدينته التي لا يتجاوز عدد سكانها ٤٥ ألف نسمة بـ"المنكوبة بوباء السرطان الناجم عن المخلفات الحربية الملوثة بالإشعاع".

ويشير إلى تسجيل ٣٨٠ حالة وفاة بالمرض المذكور في مركز ناحية الفهود والقرى التابعة لها منذ اندلاع حرب الخليج الأولى ١٩٩١ وحتى الآن.

وأكد الجابري لـ"المدى" تسجيل ٥٠ حالة إصابة حديثة بمرض السرطان مؤخرا، لافتا إلى أن الإصابات بالمرض أخذت تتفاقم في الآونة الأخيرة، مضيفا أن أعداد المصابين المسجلين حتى الآن لا تمثل الحجم الحقيقي للإصابات في الناحية التي تعاني من الفقر وارتفاع معدلات البطالة.

وتابع بالقول: هناك الكثير من المرضى ممن يتحفظون على الكشف عن إصابتهم بالسرطان ولأسباب متعددة.

وتفتقر محافظة ذي قار التي يقدر عدد سكانها بنحو مليوني نسمة إلى مركز تخصصي لمعالجة المصابين بالسرطان، لاسيما ما يتعلق بالعلاج الإشعاعي، إذ غالبا ما يلجأ المرضى للسفر إلى بغداد أو البصرة لتلقي العلاج والخضوع لجلسات إشعاعية.

عيون المدى

قصة سيارة إسعاف

□ بغداد / عبد الكريم العبيدي

لم ينقطع المسعف من إطلاق سيل من التوسلات المختلفة "الله يخليك افتح طريق. أبو البرازيلي رحمه لوالديك. أخويه ساعدونه، يمعودين. رحمه لوالديكم اتركوا الساید الأيسر. أبويه، طريق، إسعاف، جرحى، يمعودين....."

إلى هذه التوسلات، كان المسعف يأتي من يوم لآخر لقضاء "٢٤" ساعة دموية مليئة بالمفاجآت. والى هذه المخاطر والرعب والزحام، كان يهب "ذاتيا" لإنقاذ ضحايا الانفجارات ثم يعود إلى بيته . إن كانت له عودة . ليمكث يوما واحدا قبل أن يتوجه من جديد لممارسة الدوران في شوارع وأحياء بغداد، ووسط الانفجارات المتعددة.

ولكن كيف "تنصهر" هذه الـ "٢٤" ساعة من حياة هذا المسعف؟.

"أستيقظ عادة في حوالي الساعة الخامسة فجرا، أصلي كثيرا، وأقرأ سورا عديدة من المصحف الشريف، ثم أقف عند الباب وأشرع بقراءة "المعوذتين" وآية "الكرسي"، ثم أتشهد، وقبل أن أخطو تسكب أمي وزوجتي "طاسة" ماء من خلفي، وكأنني ذاهب إلى إحدى جبهات القتال!". وأضاف ": أعرف أنني مستهدف، وربما أقتل في أية لحظة".

وظل المسعف ينهي مكالمة مع زوجته ليبدأ مكالمة أخرى مع أبيه، وأخرى مع أحد أشقائه طيلة فترة أجوبته المتقطعة والمرتبكة أحيانا. وكثيرا ما كان ينسى فيقول ":عذرا، وين وصلنا!؟"

إذن هي نوبة عمل قلقة سيقضيها، منذ سماعه لصوت انفجار هائل هز بناية المركز المتواضعة، وتلاه، بعد انطلاق سيارة الإسعاف تصاعد أعمدة الدخان.

كان المسعف يتطلع في السماء:"كل الانفجارات التي تحصل من حولنا نستطيع تحديد مواقعها من أسراب النوارس والحمام التي تهرب مذعورة إلى الجهة الأخرى، فنستدل على مكان الانفجار ونذهب إليه، وننطلق بسيارة الإسعاف بلا إذن من أحد، ثم تأتينا النداءات فيما بعد عبر جهاز الموبايل، إننا نستغل الوقت ونسلك الشوارع الفرعية والترابية، أو "الرونك ساید" لكي نتمكن من إنقاذ أكبر عدد من الجرحى، ولا ننتظر".

ويبدو أن بعض توسلات المسعف نجحت في إفساح المجال للسيارة رغم أن الكثير من السائقين كان يسخر منه ويتلذذ على ما يبدو بذلك. بعضهم قال ": شبيهه الإسعاف اليوم؟، واحد محروقة إصبعه؟". آخرون قالوا ":إشخبصتنه!؟، كله إكلاوات.. أيباخ، لاهاي هيه، خصمت!."

يقول المسعف: "أحيانا يحصل انفجار، ونهرع نحوه، وننقذ الكثير من الجرحى، ثم يحصل انفجار آخر في ذات المكان، فيقتل العديد من الجرحى ومن المسعفين والمواطنين. وفي أحيان أخرى يحدث تبادل لإطلاق النار بين القوات الأمنية وعدد من المسلحين، وكثيرا ما نصبح عرضة لإطلاق النار من قبل الجميع، ولذلك فقدنا الكثير من المسعفين والسائقين".

نادرا ما كنا نشاهد سيارة إسعاف في زقاق أو شارع. وإذا مرقت واحدة منها، كنا نمط أعناقنا لمشاهدة ما بداخلها من خلال حافات ضيقة في زجاج نوافذها تركت بلا طلاء ابيض. كنا نبحث عن آخر إيماءة تركتها أصابع جريح لتجف على النافذة. ولكننا لم نعرف ما تحويه تلك السيارة، أو ما يدور بداخلها.

العقد السبعيني كان بمثابة الفترة الذهبية للإسعاف الفوري، فقد كان عملهم يقتصر على إنقاذ ضحايا حوادث السيارات ونقل السيدات اللواتي يحاصرهن المخاض فقط، ولكن في أعوام الحرب الثماني بين العراق وإيران كانت للاسعاف مساهمة فاعلة في إنقاذ الضحايا أما الآن فقد انتشرت حوادث القتل، وتصاعدت أعمال العنف فتعقدت طبيعة عملهم كثيرا، وكانت بداية لدخولهم في نهارات وليال دامية. وكانت تدار من قبل المخابرات والأمن الداخلي ومليشيات ما يعرف بفدائيي صدام. وكانت الاسعاف تستخدم للاغتيالات ونقل جثث القتلى إلى الصحراء لدفنهم في ما عرف لاحقا بالمقابر الجماعية. والمفارقة المؤلمة، أن المسعفين، وبعد أكثر من ثلاثين سنة تحولوا إلى حمالين لنقل الجثث أيضا من مناطق التوتر في المحمودية وأبو غريب والرستمية والحسينية إلى دائرة الطب العدلي!."

ويبدو أن المسعفين العراقيين هم الفئة الأولى التي تحصد أعلى معدل من القبلات من قبل آبائهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأشقائهم وأولادهم وبناتهم وزملائهم. وهم الفئة الأولى التي تستهلك أكبر عدد من "كارتات" أرصدة الاتصالات، بسبب عدم توقف أجهزة الهواتف النقالة العائدة لهم ولعائلاتهم. وهم الفئة الأولى التي تقضي كل ساعات عملها في الدوران في شوارع بغداد وسط الانفجارات ومخاطر الطرق.